والبكاء المازوم .

لقد كان للواقع الفلسطيني — بكل ما انطوى عليه ، عبر رحلة تمتد من التشرد الى الثورة — ان ساهم مساهمة فعلية في ابتداع وصياغة «الشخصية الفلسطينية » ، ان على صعيد النضال ، او على صعيد الفكر ، او على صعيد الكلمة والعطاء الفني . وتعاملنا هنا مع « الكلمة الشاعرة » ، من خلال مجموعة شعر لواحد من ابناء القضية .

لعل أخصب تجربة عاشها الشعر العربي في ربع القرن الاخير هي « التجربة الفلسطينية » التي مثلت عاملا كبيرا من عوامل الحيرة ، والقلق ، والتساؤل .. والثورة ، ايضا ، في الحياة العربية .. وقف الانسان ، بفعلها ، على تخوم عالمين : عالم الهزيمة والانكسار ، وعالم الرفض والثورة .. فتشكلت منهما أضخم دراما انسانية ، كان الشاعر حيالها في موقف المشدوه مرة ، غير مصدق ما يرى .. وفي موقف من يعيش غصة روحية ، مرة اخرى . وفي موقف ثالث راح يتمثل الانسان والثورة ، ككل متوحد ، وموحد لقضية واحدة ، باجتماعهما ، على هذا النحو ، يتشكل محورها الحقيقي . وفي كل من هذه المواقف الثلاثة حاول الشاعر ان يجعل من شعره اكتشافا للذات ، والحقيقة معا .

اضع هذا منطلقا لأبدأ الحديث عن مجموعة الشاعر خالد علي مصطفى : « سفر بين الينابيع » التي أرادها « سمفونية » تتشكل من خمسة أناشيد .. تكاد تقتصر ، في منظورها الشعري والرؤيوي ، على نوع من « تجسيد واقع الحال » الذي يمتزج فيه السرد بالاحاسيس والمشاعر . وهو ، من هذه الزاوية ، يجيء اقرب الى « القصيدة الفلسطينية » في طورها الثاني ، اذا استثنينا أسلوب التناول الذي اختلف قطعا . وكان « خالدا » هو الوريث لتلك « النشوة الفنية » المحرضة ، الداعية ، المتأسية .. وان لم يكن وريثا لصدى الاشجان التي فاض بها الشعر الفلسطيني .. انما ورث منها « الحالة » المتمثلة بالوصف والتجسيد . وكأني به يمثل « النموذج الثالث » الواقع بين تيارين عرفهما الشعر الفلسطيني : تيار الكفر بالحياة ، والنقمة ، والالام .. وتيار الايمان بالنضال والثقة بالانتصار الاخير للثورة التي بدأت . اذ يأتي شعره ليمثل الحياة التي يرفدها التياران .. لا باتجاه دفع شعره الى موقع جديد .. وانما بالصور المستخلصة من عيش الحالتين ، وتمثلهما :

من البداية يقدم لنا الشاعر « خلاصة سفره » :

« ظامئا عدت من سفري والينابيع ثوبي
ورثت كل وشم يلوح على جسدي
ورثت شموع القوارب قبل انتهاك الحصاد ،
فكان التجلي

وردة ، والهبوط
خرقة خضختها علي يدي .
بين هذا وذاك ارتحلت
فاستحالت دمائي طريقا وزاد » ..

.. ليكون « الظمأ » شعاره ، و« السفر » داره ..

وبحسب هذا « المفتتح » الذي يتقدم « خمس سفرات » ، وربما هو يقدم تلخيصا لها ، يمكن تحديد ابعاد المجموعة ، او محاور تجربتها بـ :

— الظمأ الملح الذي أصبح رفيق الشاعر في رحلته ، حيث تمزقت الطرق في أقدامه ... وهنا يكون نداء الارض :

«أرضنا — جزر العشق — تسأل عشاقها موعظة
بعدما هجر الضوء أكواخنا »
(قصيدة « القاتل الفدائي »)

— ثم تجلي واقع هزيمة الانسان في مسيرة حياة لم يكن له فيها اختيار .. واستسلامه لحالة من خدر الضياع :

« خلعتنا العشيرة من صلبها
فأتينا المقاهي نحدث حصرانها
حالمين بغزو يفك الرهائن عن
شمسنا الملجمه »
(القاتل الثائر)

— وبين واقع الظمأ للمجهول ، والسعي وراءه .. وبين الهزيمة والضياع يقف الفداء (الثورة) بديلا :

(فاستحالت دائي طريقا وزاد ..)
.. فيه الحل لمعضلة قائمة :
.. « وأعالج قفلا على شفتي بعدما
خالط السوط جلدي ،
ونما الشوك تحت لساني